

وصف البحتري

الوصف من ابواب الشعر منذ عهد الجاهلية ولكنه لم يختص بقصيدة واحدة الا اذا كانت اقتراحا او دعت اليها الحال وانما يجيء في تضاعيف القصيدة او يكون استدراجا واستتباعا كان يذكر امرا ويشببهه باخر فيصف هذا المشبه به وهو اكثر ما يكون في الشعر القديم عند الفحول منهم خاصة كامرئ القيس والتابغة وزهير ومن جاراتهم من شعراء الاسلام وهو لا يمدو امرين .

١ - الوصف الحسي وهو اظهار الصورة كما هي فيتبسط باظهار محاسنها وجمالاتها او يشبها بما يقر بها من الازهان وقد لا تنطبق على الحقيقة ولكنه المثال الاعلى عند الشاعر وذلك طبيعي في ذهن البدوي الساذج الذي يميل الى المبالغة وحيانا يخرج عن المعقول وقد تكون هذه المبالغة مالا يالفه اهل كل المصنوع فتجئ نابية يمجها الذوق وقد جرى البحتري عمود الشعر - وزاد عليه كما ستعلم من الاستطراد في وصف مظاهر الحضارة ومراقبتها .

٢ - الوصف التخيلي : وهو الذي يريد الشاعر في تخيلته فيتصوره ويصفه كأنه موجود وهو من مميزات فحول الشعراء وقليل من هم في الادب العربي والبحتري فاق الجميع في ذلك ولا يبعد في وضع الحدود فهذا هو الوصف في كل الآداب وخاصة الراقية منها واندخل الموضوع بسبيل التمثيل .

وصف الايوان

هي سينية مشهورة لاندري السبب الحقيقي الى نظمها انما يصرح
البحثري انها جاءت اعتباطا وان زورة قيدت لها خوات كما يريد
الفن لا كما يريد البحتري ولا ايوان كسرى .
اما متى نظم هذه الفريدة فغير معروف تماما وانما يحصر في زمن
مدح ابن ثوابه لقوله :

قد مدحنا ايوان كسرى وجئنا نستثيب النعمى من ابن ثوابه

ويرجح ان هذا المدح كان بوقت قريب من قصيدة الايوان ومتى
علمنا ان للبحتري موقفا خاصا من بني ثوابه وانه هجاهم يوم كان مدح
الوزير الشكور ابا الصقر اسماعيل بن بلبل ثم كان ما كان كما سنذكر في
فصل اخر وعاد الى مدحه فمدحه بقصيدتين قبل البائية وبالمناسبة
نعلم انها سنة ٢٤٥ هـ فيكون البحتري في الستين من عمره لان اول
قصيدة قالها في الوزير الشكور بقول في مطلعها

ترك السواد للابيه ويضا ونضا من الستين عنه مانضا
فتكون هذه القصيدة التي لم يختر يا قوت من كل شعر البحتري
غيرها والتي يفخر بها البحتري وقد ذكرها مرتين في شعره قد قالها
وهو في قمة شعره وقد عاش بمدحها اربعا وعشرين سنة .

مطلع القصيدة

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جيس

وهذه القصيدة يخرج فيها عن العرف أي لم يستعمل الوصف في معرض المديح أو الرثاء أو أي نوع من أنواع الشعر بل هي قصيدة خاصة بالايوان وقد سماها مديحا نجوزا في قوله قد مدحنا ايوان كسرى وجننا

يقول هذا لانه لم يكن لا وصف باب خاص .
 يوطي° للوصف بعشرة ابيات يذكر فيها انه في ذيق وفي هم وان الدهر لا يصفوا الا الاخساء ثم يتخلص معرضا .
 واذا ماجفيت كنت حريا ان اري غير مصبح حيث امسي
 حضرت رحلي المهموم فوجه ت الى ايض المدائن عني
 فهو على مذهبه الذي صرح به لابن بسطام قبل عشر سنوات من
 انه اذا حضرت رحله المهموم فماله الا توخيد المطي او خبيه ولماذا
 ذهب ؟ الجواب ساذج على عادة البحتري لا يحتاج الى كد ذهن ولا
 الى تحليل ولا الى موارد

اتسلى عن الحظوظ وآبي لمل من آل ساسان درس
 فقد جمعتها المصيبة حظ الشاعر كـ حظ الايوان كلاهما عاثر

وقف الشاعر امام هذا الايوان فدهش وغاب بالذكري لا يدري
 كيف يبدأ فجمل يصف تخيلا ثم حسيا ولماذا قدم التخيل ؟ ذلك
 طبيعي لانه لم يمد بذهنه الاعلى عظمة الا كاسرة فما قيمة هذا الايوان
 ذكرتهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسي
 وهم خافضون في ظل عال مشرف يحسر العيون ويخشي
 بالطبع كان الايوان رسما دارسا فقط ونحن نعلم انه كان زمن الرشيد

قائما وانه استشار يحيى بن خالد في هدمه فاشار بالسلب فاعمل المهدم فيه نكابة ويقال انه لم يستطع هدمه واكن بالطبع بعند مائة عام من الرشيد يوم وقف عليه البحثري كان قد تغير وحال .

نقل الدهر عهدهن عن الجدة حتى غدون انضاء ايس
الضمير يعود الى حبل في بيت سابق تركناه .

فكان الجرماز من عدم الانس واخلاله بنيه رسم
لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس
تلك القصور التي غدت انضاء ايس شبيهة ببنية رسم ما شد
ما جعلت فيه الليالي مأتما وما اروع بيان البحثري في نسبة المأتم الى الليالي
وهو ينبك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
اما هذا البيان (البلاغة) في دلالة القصور على عظمة الفرس فلا
لبس فيه .

فاذا ماريت صورة انطا
والمتايا موائل وانوش
في اخضرار من اللباس على اص
وعراك الرجال بين يديه
من مشيح هوى بعامل رح
تصف المين انهم جد احيا
يغتلي فيهم اريابي حتى
هو يصف لنا صورة رسمت على جدران القصر وقد تهدم القصر
اليوم ولا اثر للصورة فيه ولا اخال ان هذه الصورة كانت رائمة بحيث

ظن البحتري في خياله ان كسرى حقيقة كان يزجي الصفوف تحت الدرفس حتى احتاج ان يلمسها فيعلم انها حجر او حقيقة بشر تحت لانكر ان بيان البحتري يفوق الرسام وقد يكون بانفسيفساء وان صورة البحتري الشعرية خلدت مع فناء الحجر والايوان .

ثم وقد وقف على هذا القصر وجال في اطرافه حتى وصل الى حيث مقام كسرى منه وطابت له الحياه فدعا بابنه ابي الغوث ان يوجد له الخمر وايشربها بين المسكرين خلصة من هبة صاحب الدرفس وهنا يجيد في صفة الخمر كان الاجادة عدوى .

افرغت في الزجاج من كل قلب فهي مجسوبة الى كل نفس ثم اطبق عينيه وحلق بخياله .

وتوهمت ان كسرى ابرويز م معاطي والبلمبذ (١) انسي هذه امنية الدهر يشرب البحتري في قصر كسرى ويكون ابرويز معاطيه انها حلم واي حلم

حلم مطبق على الشك عيني ام امان غيرن ظني وحدسي الحلم لذيد والذمنه الحلم في اليقظة وما اروع الشعر في حلم اليقظة . ثم نظر الى الايوان بعين اليقظة فراه رجلا ضعيفا (حوبا) مكتئبا في جنب جلس اوعن لايرعوي .

وكان الايوان من عجب الصنعة م حوب في جنب اوعن جلس ثم جعل يصف هذا الحوب الضيف الكئيب في الصباح والمساء .

(١) هو اسم علم لتديم كسرى . واظن ان قد اشتق منه اسم البلهوان المهرج وقد يقال البلهوان بالقلب

مزعجاً بالفراق عن انس الف عز او مرهقا بتطبيق عرس
 عكست حظه الليالي وبات الـ م مشتري فيه وهو كوكب نحس
 فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلالل الدهر مرسي
 هذه الصورة من خصب خيال الشاعر هذا الكتيب كأن انسه قد
 فارقه او ارهق بتطبيق عرسه وهي حالات تبهث على الكابة والانكسار
 وماذا يفعل وقد عكست حظه الليالي وكأنه قد اخذ عن صديقه المنجم
 فجعل يبحث في المشتري فماذا يفعل بالليالي وهي تجمل من المشتري
 كوكب نحس ومع كل ذلك لم يزل يبدي من التجلد، هذه صور من
 الظلم ان نصفها فنتقص من بهائمهم يعود فيقول:

لم يعبه انه بز من بسط الديباج م واستل من ستور الدمقس
 مشمخر تعلو له شرفات رفعت في رؤس رضوي وقدس
 لابسات من البياض فما يبصر م منها الا فلائل برس
 ليس يدري اصنع انس الجن سكونه ام صنع جن لانس
 يريد ان يقول ان عظمة الايوان لم تكن بديباجه ودمقسه وقد
 سلبه اياها الدهر انما عظمته في هذا الملو وهذه الشرفات التي تضاهي
 رؤس الجبال والتي تلبس هذا البياض الناصع ثم يعود فيتجاهل هؤلاء
 الصناع ام جن ام انس .

غير اني اراه يشهد ان لم يك بانيه في الملوك بنكس
 فكأنني ارى المراتب والقو م اذا ما بلغت اخرجني
 فكان الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
 وكان القيان وسط المقام م سير برجعن بين حو وامس

وكان اللقاء اول من امس م ووشك الفراق اول امس
 هذا هو الوصف التخيلي الذي بز فيه البحتري من سبقه ولم
 يجاره بعده احد الايوان امامه متهدم والقوم قد فنوا واضمحلت ملكهم
 والدمر قد قلب حظهم ومع ذلك يتخيل البحتري سالف عزهم وينظر
 اليهم في عنفوان ملكهم ولكن لا يفهم من الملكية الكسروية الا هذا
 النعيم الذي اوحى به اليه مكانهم في عهد الراحة عهد الشراب والمجالس
 كسرى على عرشه والقوم بين يديه مراتب مراتب والوفود يزدحمون
 على ابوابه باكرا وهم حاسروا الرؤوس خضوعا وواقفون حتى يؤذن
 لهم وهذه اوفى صورة للمعظمة عظة الكسروية ويخضع لها (١٢٠)
 مرزبانانا وكان لم يكتف بهذه المعظمة فهذا السرور يحتاج الى ان ينصرف
 الملك عنهم الى صورة بديعة جميلة صورة تلك القيان ما بين حواء ولعساء
 رجحن في تلك المقاصير ولماذا اختار الجو اللعس اذراه تصور (دار
 الخلد) ام حلق بتفكيره الى الخلد وحوره ؟

كل هذا قد راه رأي عين وهو يظن انه قد غاب عنه منذ يوم
 او على الاكثر منذ يومين ا ترى الخمر التي لم يعردها ابو الغوث ا رته
 هذه الصور الجميلة ام شيطانه العبقري عاد به الى تلك العصور الزاهية
 فوصفها له :

ثم يختم القصيدة وقد اسماها مدح ابانه يصف الايوان لان قومه
 كان لهم عند اليمن قومه يد بيضاء ثم يذكر تلك اليد كما يرويها التاريخ
 من مناصرة اليمن على طرد الاحباش .

الذئب

وفي هذه الحقة نرى له قصيدة رائعة اخرى وهي ان لم تجار هذه
السينية في سعة الخيال فانها تفوقها في البيان واشراقه والجزالة واسرها
وتمتد عن ذكرها كلها فنتصر على ذكر ما يفيد التحليل :

وايل كان الصبح في اخرياته حشاشة نصل ضم افرنده غمد
تسر بلته والذئب وسنان هاجع بهين ابن ليل ماله بالكري عهد
اثير القطا الكدري عن جثمانه وتألفي فيه الثعالب والربد
هذه صورها ما هو حسي وفيها التخيلي. التشبيه معروف ولكنه

قد ابرزه بهذه الصورة الجميلة الصبح نصل ضم افرنده غمد اما انه
يشير القطا عن جثمان الليل فهو بديع جدا كان الليل ليس بهاجع فقط
بل مانت حتى وقعت القطا على جثمانه ثم يحى الى وصف الذئب على
طريقته الحسية .

واطلس ملء العين يحمل زوره واخلاعه من جانبيه شوى نهده
له ذئب مثل الرشاش يجره ومتم كتمن القوس اعوج مناد
طواه الطوى حتى استمر مريره ثما فيه الا العظيم والروح والجلد
فضفض عصلا في اسرتها الردى كفضفضة المقرر ارعده البرد

هذه صور حادثة ساذجة يحسن ان تقابل بصفة الذئب عند
الشنفري في الامية لتعلم كيف تطور البيان العربي ثم يصف بمد
ذلك الواقعة .

سحالي وبني من شدة الجوع مابه
 كلانا بها ذئب يحدث نفسه
 عوى ثم اقمى فارتجزت فهجته
 فاوجرته خرقاء تحسب ريشها
 فما ازداد الا جراه وصرامة
 فاتبعها اخرى فاضالت نصلها
 نخر وقد اورده منهل الردي

وهذه صفة تخيلية وكاني بدوي في الصحراء يصف لنا مغامرة
 جرت معه ولكن البحتري لا يتأنق ولا يخرج عن المألوف فهو حقيقي
 لامثالي قصة طبيعية لا يميزها الا هذا البيان الناصع فالبحتري جاري
 الشعراء قبله ونسج على منوالهم ولم يات بالجديد .

ثم يقول بعد ذلك بلغة البدوي .

وقمت فجمعت الحصى فاشتويته عليها وللرمضاء من تحته وقد
 ونلت خسيسا منه ثم تركته واقلعت عنه وهو منعفر فرد

يخرج البحتري على الطبيعة هو في ليل الصحراء فمن اين جاء
 بهذه الرمضاء التي ثوي الذئب عليها . واما قوله نلت خسيسا ليطابق
 قوله اولا كلانا بها ذئب يحدث نفسه لصاحبه وهي تمثل لنا البدوي
 القاص لا يهتم ان يكذبه السامع بل يشبع نفسه من هذا الخيال

وصف صراع الفتاح بن خاقان والاسد .

هذه قصيدة مدح كانت ينبو عاثرا لشاعر فحل هو المتنبى وصاحب
 مقامات هو بديع الزمان الهمداني فالاول استعمل معناها وكان
 بيانه بغنيه عن ان يتخذ الفاظها والفضل المتقدم والثاني اغار على
 الفاظها ومعانيها ومن الغريب انها عرفت به ونسبت الى بطلها بشر

بن عوانة .

يقول البحتري بعد ان وصف الاسد معنويا اي شجاعته واعماله
خلافاً لما وصف الذئب

فلم ارَ ضرغامين اصدق منكما	عرا كما اذا الهيابة النكس كذبا
هزبر مشى يبغى هزبر او اغلب	من القوم يفشي باسل الوجه اغلبا
ازل بشغب ثم هالته صولة	راك لها امضى جنانا واشغبنا
فاحجم لما لم يجد فيك مطعماً	واقدم لما لم يجد عنك مهرباً
فلم يغنه ان كر نحوك مقبلاً	ولم ينجه ان حاد عنك منكباً
حملت عليه السيف لاعزمك اثني	ولا يدك ارتدت ولا حده بنا

هنا وصف واقعة حال لم يتصنع فيها ولا تخيل ما ليس موجودا
وانما وصف الامير الشجاع بانه قتل الاسد وطبيعي ان يفضل الفارس
على الاسد لانه قتله فليس فيها ما يميزها عن ذكر الحاديات العادية
اننا يبرزها الشاعر في قالب محبب الى السماع شان شعر البحتري عندما
يكون في معرض الرضى والسرور .

وصف القصور

من الطبيعي ان نجد في هذا الديوان الفخيم الذي انشده اكثره في قصور الخلافة والوزارة ان تال هذه الحضار منه نصيبا وافرا وكان ان هؤلاء الخلفاء استجدوا قصورا لحدائثة مدينتهم سرمر او كان من الطبيعي ان يذكر هذه المرافق فرأينا اسماء القصور الجعفرية اولها وقد تكون المتوكلية فالصفة واحدة ولم اهتد الى الفرق بينها وجعفر هو المتوكل ثم (الفرد) ووردت بالعين ويظهر انها الفرد بالفاء وقد ورد في الجاهلية اسم (الابلق الفرد) اسم حصن ثم البديع والكامل ثم المشوق والمشوق ثم الساج وكلها متشابهة بقول من قصيدة مديح في وصف الجعفرية :

فرغت بنيساننا كان مناره	اسلام رضوى او شواحق صبير
ازرى على هم الملك و غرض من	بنيان كسرى في الزمان وقصر
عال على لحظ العيون كاعسا	ينظرن منه الى بياض المشثري
ماتت جوانبه الفضاء وعانت	شرفاته قطع السحاب المطر
وتسير دجلة تحته قفتاؤه	من لجة غمر وروض اخضر
شجر نلاعبه الرياح فتدني	اعطافه في سائح متفجر

هذا وصف لا يزيد شعر البحتري قيمة فهو اولي كما نرى وليس فيه غير المبالغة المقبولة باستعمال كان فهو عال الى السماء ، وما بعد ذلك لا يزيدنا معرفة بالقصر الا بانه عظيم كبير وقبلا قال الفرزدق في صفة

علو قصر (ثمانون قامة) فلم يزد في معرفتنا به شيئا ومن المعلوم ان هذا الشعر كان في المتوكل والفرق ظاهر بينه وبين شعره زمن المعتمد .

ودونك قطعة اخرى في وصف الكامل زمن المعتر

لما كملت روية وعزيمة	اعملت رايتك في ابتناء الكامل
رفعت لمخترق الرياح سموكه	وزهدت عجائب حسنه المتخايل
وكان حيطان الزجاج بجوه	لحج يمنجن على جنوب سواحل
وكان تفويف الرخام اذا التقى	تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر	ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه	نورا يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلمن في ذي رونق	متلهب العالي اتيق السافل

فترى هنا انه قد تبسط في وصف اجزائه وزينته ويلاحظ

ان الشاعر ارخى لنفسه العنان شأنه في مديح المعتر فلم يكن يتحرج ولا يهمننا أموافقة هذه الاوصاف للحقيقة ام غير موافقة فان الشاعر يجول فيها جولات صادقات وقد فئت القصور وزالت وبقي هذا الوصف خالدا بقيت هذه الرسوم الدوارس ولكن هذا الزجاج والرخام لم يبق منه الا الذكريات بله الذهب الصقيل الذي كان يضيء الظلام في سقوفه .

ولا اترك هذا الفصل بدون ان اذكر ما قال في الزو لازالة وهم دائرة المعارف الاسلامية قال في مديح المتوكل .
فلم ار كاقاطول يحمل ماؤه تدفق بحر بالساحة طام

ولا جبلا كالزور يوقف تارة
ثم يقول في مدح المعتر:
تمجبت من فرعون اذ ظن انه
ولو ابصرت عيناه بالزور لا زدري
اله لان النيل من تحته يجري
حقير الذي نالت يده من الامر
يروح ويندو فوق امواجها يجري
ويستنزل الطير العوالي على قصر
ولا يحتاج هذا الكلام اتوضيح واظهار خطأ من ظن ان الزور قصر
وهو سفينة معروفة .

ولا يحسن بنا ان نترك الوصف دون ان نشير الى البركة المتوكلية
فهي رائحة ولكن شهرتها تغني عن ذكرها وليس فيها ما يزيد على ما قلنا
وهناك موقف البحتري من مظاهر الخلافة وذكر الجيوش
وصفاتها في معرض الاعياد او في طريق القزو او في الدب عن حوض
الخلافة او في رد المارقين او وصف غرق الفتح بن خاقان او وصف
السقر والسفينة فضلا عن صفات الخيل والغلمان والتبيذ والشراب
والربيع والنيروز وما شا كل والحقيقة ان كل قصيدة في الديوان
ناطقة بهذه الظاهرة فلو لم يكن البحتري شاعرا لكان مصورا او كاهنا
من روائع الغنون الرفيعة .

الشعر المصنوع

عند أبي الصقر :

هذا وزير المعتمد عاقل مدبر عالم هو عربي شيباني يحرص على هذا
النسب ويفاخر به هو بعيد كل البعد عن حوك الدسائس لا اكتساب
الاموال يرجع في جميع اموره الى العقل والرصانة وقد اكتسب لقب
الشكور ويصرح بالبحثري بهذا اللقب وقد مدحه بثلاث وعشرين
قصيدة بين مطولة ومقطوعة

في هذه القصائد وجوه عديدة لشعر البحتري اهمها انها تنقصر الى
رونق قصائد الخلائف والى اشراق ديباجة الشباب والفتوة وتلك
النار الالهية فان للفكر واعماله ولتعمل والصنعة حكما قد طبع هذه
القصائد وانا البحتري بثوبه الحضري المنمق ولكن هذا الوشي
والتنميق اخلق تلك الديباجة ولم يغل من قيم الشاعرية . نختار له
قصيدة هادئة رزينة تدل على رهبة الشاعر امام هؤلاء الوزراء العلماء
الذين يحاسبون على كل كلمة ويفهمون الشعر وترى قصائده فيهم طويلة
ومتنوعة الموضوعات ومطلع القصيدة .

اعن سفه يوم الايرق ام حلم وقوف برقع او بكاء على رسم
والرجوع الى القديم لا يحتاج الى ايضاح في هذا المطلع .
ثم غزل غريب فلا علوة ولا ايام الشام ولا الطيف ولا هذه الحمرة ولا
البديع المرقص حتى ولا هذا الارصاد الذي كان مغرما به .

مخبريني ايامي الحدث انني تركت السرور عند ايامي القدم
 واولمت بالكتمان حتى كاتي طويت على صغن من الدين او وغم
 فهذه الايام الحدث وطباقتها القدم مع تفاضينا عن هفتوات البحتري
 لانها توافق ذوقه وهو في مجلس الوزير مدبر شؤون الخلافة
 الدينية والدنيوية يشير الى هؤلاء الذين بطورون على ضغينة للدين
 فيظهرون خلاف ما يظنون .

فان تلقي نضو العظام فانها جريرة قلبي منذجرت على جسمي
 وهذا التفات الى الفقه ايضا فانه جار على جسمه عندما اتبع جريرة
 قلبه فكان القصاص انه امسى نضو العظام الا ترى اعتساف الشاعر
 وركوبه الصعب في هذه المخارم التي لم يتمودها .

ثم يتبع ذلك بتعميل اقل ما يقال فيه انه غير بحتري المذهب المعروف
 وحسي من برء تمانيل متخن من الحب ينمي مدرية ولا يصمي
 اذا راجعت وصلا على طول هجرة تراجمت شيئا من بلائي الى سقمي
 هذا الغزل بعيد كل البعد عن مذهب البحتري ولكنسه تهيب
 الوزير فزم بيانه بمثل هذه الاباطيل .

ثم يتخلص بدون عنف ولا صلة من الغزل اذا صح ان ينسب
 هذا الى الفخر باليمن .

خليلي مالي لاشفاء من الجوى ولا نعم مرجوة النجج من نعم
 اعينا على قلب يهيم صبابة وعين اذا نهنتها ابداتهمسي
 حنت مذحج حولي وباتت عمائر تدافع دوني من عرائنها التسم
 هذا الجناس بين نعم ونعم هزيل جدا وهذا الانتقال من الغزل

الى الفخر بهلواني ثم يذكر هجاء احمد ابن صالح القطريلي ويصفه
بكثرة المال والبخل ويعلم بيتا خالداً :-

اذا المرء لم يجعل غناه ذريعة الى سوؤد فاعدد غناه من المدم
ثم يذم اهل المهجو بالحسنة وانهم خوف زمان السوء (وهي صورة
جميلة) حتى يتخلص الى مديح ابي الصقر .

فلولا ابو الصقر الاغر وجوده رضيت قليبي واقتضرت على قسمي
ثم يمدحه مديح وزير مدبر هو المثل الاعلى للوزارة

اذا وعد ارفضت عطاء عذاته واعرف منهم من يحز ولا يدمي
ولا كشفت عنه الوزارة اخرق م اليدين على الجلي ولا طائش السهم
كـثير جهات الرأي مفتنته الى عدد لايتي صور الحزم
الى ن يقول :-

كأناك من جذم من الناس مفرد وساثر من يأبي الدنيا من جذم
كأنا عـدوا ملتقى ما تقاربت بنا الدار الا زاد غرمك في غنمي

هذا مديح فاخر يرجع في كل بيت منه الى اختيار الكلم وتخلها
ووضعها مواضعها فانه لم يرضه ما في اول القصيدة من هذا الاعتساف -
وهو ليس من طبعه - حتى وفق اخيرا الى اظهار فكرته واكتفها
ليس على ذلك القلب الجذاب الذي يجعل شعر البحتري في طليعة
الشعراء

قد ذهبت قوته بنهاب اشبابه ولم يكن حظه الا في دور الخلافة

المناقضات عند البحتري

ارضيهم قولاً ولا يرضوني فعلا وتلك قضية لم تقصد
فانهم منهم ما ينم وربما ساعتهم فحدث ما لم يحسد
عابوا على البحتري عدم وفائه فان في شعره مديح قوم وهجاءهم وبالعكس
يهجواهم اولاً ثم يمدحهم وقالوا ان هذه صفة لا تليق بالبحتري وهو
الذي بعد عن كل هذه المواقف الشائنة بالوفاء ونقول ان الشاعر هو ابن يومه
ان لم يكن ابن ساعته وهو لا يتقيد بما يقول و كنت احسب ان البحتري
سار بسيرة الفرزدق بهذا الشأن وقول الفرزدق ماثور (نكون مع
احدكم مادام الله معه فاذا فارقه فارقتاه) وهو يريد انه يمدحهم ماداموا
امراء ولكن اذا غضب عليهم او عزلوا فيكون عليهم للبحتري مثل هذا
الموقف ولكن له غيره مما لا يتصل بالمنزل والولاية كما ترى كثيراً من
الشعراء جرى لهم ما جرى للبحتري من المديح والهجاء ولم يضرهم ذلك
ولاحظ من شعرهم والحقيقة ان الشاعر ملب لدعوة عاطفة وقد تكون
لاهبة فالعاطفة والثبات لا يجتمعان وقد رأيت كيف دافع البحتري
عن نظريته عندما وقف من ابن طاهر فهو كأن يرد كل شيء الى
العاطفة والشعر ويمدها عن التعقل والموازنة والترجيح او التعمق
في ابداء الرأي والتحرز هذا هو الرأي الذي وصلت اليه بعد درس
عميق و كنت اولاً قصدت الى ان البحتري جاري بشاراً او بالاحري
دعبلاً في طريقته ودعبل صديق له وقد كان جليسه وخدمته وقد
كتب مرة الى صديقها علي بن يحيى المنجم .

مادا تقول ولم تزل ذا حمية فضل تقول بها الجميل وتفضل
في فتية بكروا عني تطربا من اوجه شتي وفيهم دعبل

ويدل دلالة صريحة ان دعبل كان في فتية التطرب اي لم يكن
خسيسه وطريقة دعبل لا تخفى وهي ان الهجاء المقذع آخذ بضيع
الشاعر من المديح المضرع وفسره برده على ابي خالد الخزاعي وقد
لامه على الهجاء (ويحك اني تأملت ما تقول فوجدت اكثر الناس لا
ينتفع بهم الا على رهبة ولا يبالي بالشاعر وان كان مجيداً اذا لم يخف
شره وان يتقيد على عرضه اكثر ممن يرغب اليك في تشريفه وعيوب
الناس اكثر من محاسنهم وايس كل من شرفته ولا كل من وصفته
بالجود والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك فاذا رأك قد اوجعت
عرض غيره وفضحته اتقاك على نفسه وخاف من مثل ماجرى على الاخر
وهو كلام مقتبس من قول بشار وفي عصر البحتري كان ابن
الرومي يذهب مثل هذه المذاهب ولكن البحتري الحاذق النافذ الراي
علم ان هذه الطريقة قد ماتت بذهاب امراء البادية والمنتقرين الى
الاسلام والعرب في بدء الامر اما الان فالوزراء من الموالي والامراء
من العرب يسرون بسيرة هؤلاء القادة الذين لا يؤثر فيهم مديح ولا
يخشون عرضاً ولا فضيحة وهم يلجئون الى سيوفهم وغدرهم واحزابهم
فضلا عن ان البحتري لم يكن شرسا ولا شكسا وكان رضي الخلق
كما يلاحظ من كل شعره .

بمد هذا يرجع عندي الراي الاول وهو ان هذا الهجاء جاء لها
بدون تمعد او تشبه انزوة كانت متائرة بدوة فرطت عن امر وهو

يصرح ولا يجمع .

ارضهم قولا ولا يرضوني
فادم منهم ما يذم وربما
وبعد انرا هذه البواعث

فعلا وتلك قضية لم تقصد
ساعتهم فخدمت مالم يحمده

عجا بني ثوابه وبني عبد الاعلى بقوله :

قصه التل فاسموها عجا
ادعى التل فرقتان تلاحوا
حكم العادل الجندي فيهم
احفروا التل يا بني عبد الاعلى
ان وجدتم فيه شبك ابيكم
او وجدتم عجا ان حفرتم
فبدت جونة من الخوص فيها

ان في مثلها تطول الخطابه
آل عبد الاعلى وآل ثوابه
بصواب فلا عدنا صوابه
واثروا صخوره وترابه
كنتم دون غيركم اربابه
زل شك المعصاة المراتبه
آلة الشيخ وهو جد لبابه

هذا امر هجاء يسير فيه بسيرة الاقدمين ويدلر دلالة واضحة على
رسوخ قدم البحتري بالهجاء وحسن صنمته وكانه في هذه الابيات
التهمكية ينظر الى قصة ذكرت في مجلس زياد ابن ابيسه في البصرة
وتناخص بان بني راسب وبني طفارة نخصما في ملك غلام فقام احد
الحضور وكان زكنا فكهاقه على حضرتي حكم لارده ايها الامير ايعارح
الغلام في النهر فان رسب فهو لبني راسب وان طفا فهو لبني طفاوة .

وقصة هذا (التل) عجب غلط فيها طابع الاغانى فرواها التيل
وذلك للابهة هذه وبنت اخر يقول فيه :

ما كسبنا من احمد بن عبي ومن التيل غير حمى التيل

اما نسبة الحكيم الى الجنيدى فخيم الوزن وهو يريد انه حكم عادل لا يرد ان وجدتم بالمثل شبا كما فالتل ابني عبد الاعلى وانه وجدتم محاجم فهو ابني ثوابه يريد ان يقول ان جد بني عبد الاعلى كان سما كما وجد بني ثوابه كان حجاجا .

فاما بلغت الابيات الوزير (الكاتب) احمد بن محمد بن محمد بن ثوابه بعث اليه بالف درهم و ثياب ودابة بسرجهما وجامهما فردها اليه وقال قد اسلفتمك امساءة لا يجوز معها قبول رقدكم فكذب اليه الوزير (اما الاساءة فمغفورة واما المنذرة فمشكورة والحسنات يذهب بالسيئات . ما بأسو جراحك مثل يدك وقد رددت اليك ما رددته علي واضفتمه فان تلافيت ما فرط منك اثبنا وشكرنا وان لم تفعل احتملنا وصبونا) فقيل ما بمت به وكتب اليه (كلامك والله احسن من شمري وقد اسلفتمني ما انجلمني وحملمني ما انقلتمني وسياتيك ثنائي) ثم غدا اليه بقصيدة مطلعها ضلال لها ماذا ارادت من الصد) وقال فيه بعد ذلك : (برق اضاء المقيق عن ضرمه) وقال فيه ايضا : ان دعاه داعي الهوى فاجابه (ملخصة عن الاغلي) .

وهذه الرواية صحيحة يثبتها ما في الديوان والقصائد مرتبة غير هذا الترتيب وكلها تدل على شعر البحتري في هؤلاء الكتاب الادباء .

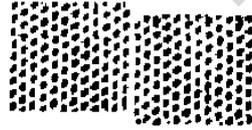
والتامل يرى ان رجوع البحتري الى مديح بني ثوابه كان لوقفهم من هجئه فانه كان باستطاعته ان يحرمه وان يناوئه ولكنه اجازه وقوله (ان تلافيت اثبنا وشكرنا وان لم تفعل احتملنا وصبونا) اخراج ما بمته اخراج لوقف البحتري فلم يكن منه الا ان ندم واعتذر ومدح وهو موقف عادي

والموقف الثاني الذي يسجل على البحتري هو موقفه من الخليفة المستعين وهذا طبيعي ايضا فانه لما بويغ بالخلافة وكان ذلك من حق صديقه ورئيس حزبه الممتز حمل البحتري هذا المظهر على عادة العصر وديدن الاتراك فقد صار الامر الى المستعين وهو احمد بن محمد بن المعتزم اي ابن اخي التوكل فمدحه ووقف المستعين منه موقف خزي فلم يقدمه ولم يبعده وبقى معه وهو بمدحه وموقفه لم يتغير حتى كانت الفتنة بين المستعين والممتز فكان من الطبيعي ان يكون البحتري في حزب الممتز قد اقتصر في هذه الحزبية ولكنه عمل برأي صديقه المنجم فزار الممتز في السجن وانشده ولما آلت الخلافة الى الممتز وقتل المستعين جاء كما ينبغي بمدح الممتز وكان من الطبيعي ان يشير الى الفتنة ورأسها وان لا يترك صاحب الفتنة من غمز القنائة ليسر الممتز المالك سعيدا. الا ترى الى بوض جرائد هذه الايام كيف تقف من كل حكومة موقف الدائمة وتزيد في النكابة فتذكر الحزب المناوي بكل شر ومن المعلوم ان البحتري جاري الممتز في اول قصائده ثم لما تنوسي امر المستعين جعل بمدح الممتز بدون ان يذكره مما يدل على ان ذكره ليسر الممتز والفتنة قريبة عهد.

وهذا الهجاء ليس من طبع البحتري بل ساقه اليه الزمن والسياسة وكذا الامر في ابن الحصيب وزير المنتصر فلما كان وزيرا ومدحه ثم لما غضب عليه الخليفة وقتله مدح الخليفة ودم ابن الحصيب وكذلك يقال في امر ابن طولون فلما كان عامل الخليفة كان على البحتري ان يمدحه ولكن لما شق عصا الطاعة وحارب جيوش الخليفة وقهرها كان من

المادي ان يهجوهُ وان يكون سيقاً من سيوف الخِلافة يقطع بلسانه .
ونرى هذا الامر عديداً في امة ادباء هذا العصر العالمي فهذا برناردشو
وجيد مدحا الشيوعية ثم نقما عليها ويقم الانسان على رأي حتى
يرى ما ينقضه .

اما ما ينسب الى موقف البحتري من الفتح وعتابه فليس فيه
شيء من الهجاء انما هو ادلال غير لم يعود عادات الخِلافة وتطالباتها .



تشيع البحتري

اراد بعضهم ان ينسب الى البحتري ميله الى بني امية ومثل على ذلك
بآيات قالها في اول امره بالشعر يوم كان ينشد محمد بن يوسف وابنه
والآيات يقولها في ابي سعيد محمد بن يوسف الثعري وقد سلم الى
كاتب نصراني لسعيد الحاجب وامر بتمذيبه والغلظة عليه في المطالبة
والاستخراج .

يا ضيعة الدنيا وضيعة اهلها والمسلمين وضيعة الاسلام
طلبت دخول الشرك في ارض الهدي بين المداد والسن الاقلام
هذا ابن يوسف في يدي اعوانه يجزى على الايام بالايام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه اميسة لو رعت بنيام

وهذه غيرة بحترية تشبه تلك النزوة التي قالها يوم قتل المتوكل
وجعل يتوعد ولي العهد انذاك ثم اصبح الخليفة و لآن نراه يصبح اذ
ابصر ولي نعمته يسلم ليعذب وهذه الاقوال تصدر بعدم اتزان ومقارنة
لاقيمة لها وقد رأينا البحتري في عنفوان شعره يفضل خلافة العباسيين
على جميع متاوثيهم حتى انه يذكر بني امية .

وانتم بني عم النبي محمد عين قريش اذ سواكم شمالها
وقد سرني ان الخلافة فيكم خيمة ما ان يخاف انتقالها
لكم ارتها والحق فيها ولم يكن لغيركم الا اسمها واتجالها
وان بني حرب ومروان اصبحوا بدار هوان قد عراكم نكالها

اتراه كان يعتذر للمتوكل عن هفوته وان يطعن باله ان بني حرب
 وبني مروان امسوا بدار الهوان وانهم لا يرجي منهم ان يطلبوا اخلافت
 وللبحثري مظهر اخر وهو صريح يرد على علي بن الجهم وكان
 هذا الاخير يتقرب الى المتوكل بسبب علي وآله ولم يكن
 البحثري ممن يتشع ولكن غاظه ان يرى هذا التذنب فصاح به .
 لاية حالة تهجو علياً بما افقت من كذوب وزور
 وقد الخش في هذا الرد .

او ان يسمع الحسن بن رجاء يتهجم على العلويين ومنهم من يقول
 انه قالها املي بن الجهم نفسه فيجيبه :
 ان وقت سوقك او اكسدت بضاعة من شعرك الخائب
 انحيت كي تنفقها زاريا على علي بن ابي طالب
 ولا يعني هذا انه كان يرى عليا وابناء علي اصالح من سواهم ولكنه
 غار على الكرامة ولا يمكن ان تنسب هذه الابيات في مديح المنتصر
 في انصاف الطالبين الى تشيع الشاعر فان المنتصر كان خالفا لايه
 يرى ان الطالبين اهله وذوو قرياه .

ومن المعلوم ان المتوكل جار على الطالبين وعاملهم معاملة سيئة
 فكان من الطبيعي ان يحدث هذا العمل رد فعل في نفوس كرام
 المسلمين وكان على رأسهم ولي العهد المنتصر وقد يكون ذلك طبيعيا
 فالمتوكل يرى في المنتصر خصما فيلجأ هذا الى اعداء ابيه المتوكل وهم
 الطالبيون واشياعهم وعند ذلك تصبح حلقة مفرغة كل ينسب سبق
 خصمه الى هذا الموقف المدائي ولما آتت الخلافة الى المنتصر كان من

الطبيعي ان يفي لهم بالعهد ويرفع عنهم المظالم ويدخل البحتري في هذه
الغمرة ويمدح الخليفة فيذكر ما يلابسها وينتهي ذلك بموت الخليفة
المنتصر مما يدل على ان عمله سياسي لا ديني .

اما أن البحتري كان يتفلسف بالعقائد فطبعه بعيد عن كل ذلك
وإدارايناله مثل هذه النظرات الصائبة فما تدعو اليه الحال ولا نعمم
التمثيل على كثير من آراء الفرق الاسلامية واختلافها

هو الحظ ينقص مقداره لمن وزن الحظ او كاله
ارى الخير والشر من معدن واكثر ساع واتقلا له
او قوله :

يزعم البر في التمشد م والاسمح اولى بان يبر ويدني
يحتشي زلة الخطار وارجو عودة من عوائد الله تمنى
لم تلغني اني سمحت ولكن لت اني احسنت بالله ظنا

وهو في مثل هذه الاقوال لا يدل على مذهب ولكنه يسوق الحكم
سوقا ويتأثر بالشعراء الذين ينغمسون في الحياة الاباحية وهو يرجو
عفوره ولا يبعد ان يكون هذا طبيعيا لمن يسير بهذه السيرة ولا
يحتاج الى امام يضع اصولا لكل فكر يرد على خاطر شاعر

علوة والخيال

وإذا ما ابى الحبيب مؤانا
 تي تبلغت بالخيال الملم
 الغزل من ضروريات المديح في عصر البحتري وكما كان الوقوف
 على الاطلاق في زمن الجاهلية والاسلام من تروميات البدء في القصائد
 اصبح الغزل الجديد من تروميات البدء في المديح اخذ البحتري به ولم
 يعدل عنه في قصيدة واحدة وإذا تبعنا شعر البحتري نرى انه جرى
 في اول امره على منبج من تقدمه وكان جافيا نوعا ومتكافئا في اكثره
 ولكنه اتخذ اسلوبا واحدا لم يحد عنه في جميع اطوار شعره
 وكان يصف الطيف ويسترسل في مداعبته وهي طريقة جديدة تزمها
 وتوسع فيها من مدائحه الاولى في محمد بن يوسف الثغري الى بني حميد الى ان
 جاء العراق واتصل بالخلفاء وانما يمتاز خياله قبل العراق بانه لم يكن
 يخص امرأه بنفسها بل كان يهتدي بهدي القدماء انظر اليه في مطلع
 قصيدة يمدح بها يوسف بن محمد

لاوشك شعوب الحي ان يتفرقا فيدمى الجوى او يرجع الحب اولقا
 اما ان في ذلك النقا لاوانسا تشى اعاليهن ايننا على النقا
 ودمجيني هنا بيت ينظر الى ابي نواس :

تبلد فيها الحسن حتى انتهى بها وابدع فيها الظرف حتى زندقا
 حتى يصل الى ما نغني :
 وطيف سرى حتى تناول فتية سروا يلبسون الليل حتى تمزقا

فعادوا ويوم الهجرة اسوان بعدما قرعنا له بابا من الشوق مغلقا
وما قصرت في درغنون رماحنا فيرجع منها الطرف غضبان محنقا
أظلمة العينين مظلومة الحشا ضعيفته كفي الخيال المؤرقا

هذا على ما يظن اول ذكر للخيال عنده ثم اخذ به يد المعنى ويجود في
الشعر فيجود الوصف ويرق شعره ويصفو وصفه وخياله . انظر الى
قوله في محمد بن حميد الطوسي المكنى بابي نهمش

هذا الحبيب فرحبا بخياله اني اهتدي والليل في سرباله
بل كيف زار ودونه مجهولة من سبب قفر عسور بآله
سار تجاوز من شقائق عاج بمد المدى من سهله وجباله
حتى تقنصه الكري لتم لولا الكرى لشفاه من بلباله

هذا معنى ساذج يحجم البدوي هذا الخيال ويستصعب سراه في هذه
الاسباب وسيره بين هذا الآل حتى تصيده الكرى وهو معنى شعري
ظريف ولكنه لم يزل على بذاته . ولما جاء العراق جرى على سننه وفي
مدائح الفتح الاولى لم يخص واحدة بل رأيناه يقول من غزل قصيدة :

وما ناديتي للشوق الا عجلت به قلبيت المنزادي
نأين بحاجة وجذب قلبا تأبى ثم اصحب في القياد
خطية ليلة تمضي ولما يؤرقني خيال من سعاد

ها قد ذكر اسم سعاد وقرنه بالخيال وقدما رأيناه بذكر عسير
سعاد على عادة الشعراء ثم يجانس ويورى بالاسماء ولكننا رأينا لأول
مرة اسم امرأة يقرنه ببلاده

جفوت الشام مرتبي وانسي وعلوة خلتي وهوى فؤادي

ومثل نذاك اذهاني حبيبي واكسبني سلواً عن بلادي

ومن هذا التاريخ برز اسم هذه المرأة واضحا في غزله وهو يصر على انها امرأة حقيقية وانها من احدى قرى حلب (بطباس) ثم يقرن باسمها اسم الشام جميعا واسم هذه المنازه على قويق وفي قرى حلب حتى منبج وقد جهدت في ان اعرف كثيرا عن هذه المرأة التي خلدت في شعر البحتري والتي زانته بهذه الروائع فلم اهتد الى ما يروي غلة وللأسف من الحظوظ ما لغيرها قرب اسم مر عرضا ولم يأبه له احد ثم اصبح على شفة كل انسان هذا ابو زيد السروجي مر في البصرة يوما ثم قبض له من الحريري ان جعله علما فذاني عالم الادب قل من لم يسمع به وإليه ينسب كثيرا من العلوم والفنون الادبية

وبعد اكانت علوة هذه امرأة بعينها ام اخترعها البحتري عروسه لشعره؟ بالتحقيق يعلم ان علوة هي امرأة حقيقية وانها تنسب الى امها زريقة وكانت غسالة او هي نفسها كانت غسالة وعليها لمحة من الجمال ولا ندري اية ساعة سرور مر البحتري وهو شاب ببطباس فراها فوقمت من نفسه . هل جاذبها الحديث؟ هل علم انهم انصنع لهذه المنزلة من شعره؟ او هل كان يحلم بان شعره سيخلد وانا بعد الف ومثي سنة نجهد هذا الجهد في البحث عن امرأة ذكرها في شعره الله اعلم انا نعلم مذهب البحتري في الحياة هو يؤمن بهذه الاتفاقات هو يسير كما تقوده الحياة انه لشاعر وانطباع نفسه الاون له اثر كبير في توجيه هذا الذهن الوقاد .

لم يصف علوة بالادب كما كانت هذه انقيان الشواعر في بغداد او

في دور الخلافة . كان يشعر بهؤلاء القيان الشواعر ولكنه لم يكن
يميرهن اقل اهتمام ولم يتدخل في شأن من شؤونهن بل كان يذكرهن
عرضا ولم يسم احداهن كما كان يفعل غيره من الشعراء المعاصرين
واذا ذكرهن فليبرزه علوة ان تكون مثلهن هو يصف علوة بانها
خفرة كأن الخفر لم يكن من صفات هؤلاء .

كم ليلة فيك يت اسهرها	ولوعة من هوانك أضمرها
وحرقة والدموع تطفئها	ثم يعود الجوى فيسعرها
يا علو عل الزمان بمقننا	ايام وصل نظل نشكرها
بيضاء رود الشباب قد غمست	في خجل دائم يعصفرها
مجدولة هزها الصبا فشجا	قلبك مسموعها ومنظرها
لا تبث العود تستعين به	ولا تبث الاوتار تحفرها
الله جار لها فما امتلات	عيني الا من حيث ابصرها
ان قويقا له علي يد	بيضاء بالامس است اكفرها
وليلة الشك وهو ثالثنا	كانت هنات والله يعفرها

هو ذا يصفها ويصف ليلة معها هو بعيد عن الطيف والخيال الان
هو يذكر حقيقة وهل يصدق الشاعر؟ فما هذا المسموع الذي يعني؟
هل يريد انها تعني لذكر ما يلزم الغناء عند القيان كالعود والاوتار هي
تعني شان هؤلاء القرويات كما تريد ان تعني لايهذب غناها منعمة ولا
تتقيد بقوانين وهو الشاب القروي يلذ له هذا الغناء ويلذ له ما يوافق
هذا الغناء وهل يستطيع هذا الشاب المحروب بكل عاطفة ان يختار
في هواه وان يعز بين العث والسمين هو في ليلة الشك على ضفة قويق

(غير قويق هذه الايام) هو يسمع بغير ادنه ولا اخاله ينظر وايـالة الشك لا تعير معها الاوان هو موقف الشاب وقد اوتي مناه تلك ليلة من ايامي القرى في ضواحي حلب وهي يد الدهر لا ينساها ورأيناه دائماً يذكرها وهو يسميها هينات والمهينات هينات فهو يذهب مذهب استاذة ابي نواس في اقرار الخطايا ولكنه لا يجترح منها كما كان ابو نواس .

وهو يردد اسم علوة في العراق وقد اتخذ منها المثال الاعلى للجمال وحفظ العهود وهل حفظ عهدا لتحفظ عهده ؟ هذا لا يعرفه شاعر ولا يعرفه رجل وخاصة في الشرق السمح ولكنه يريد لها ان تصبر على طول غربته والاعرب انها غير خالية هي حرم لرجل سواه ولكن البحتري لا يفهم هذا المنطق هو يريد الحياة كالشعر لا تخضع لقانون ان تكون لمحات وان تؤايبه وان تكون الايام اعيادا لذلك عاد في احدي عوداته الى منبع وتخطاها بالطبع الى ملاعب هواه وقد رجع وهو الغني المثري الذي جالس الخلفاء ورأي من زهو الخلافة وما في دورها من امان الحياة ورونقها ما حقر عنده بطياس وما تجح علوة . علوة هي هي التساله في بطياس وزوجها الزفاني الذي كان صديقاله في المنزل الخشن اخذ يراه ويراها بغير تلك العين وتمنى انها لو بقيت كما كان يراها يوم كان على ضفاف دجلة ويوم كان يتنزل بطيفها ويعصف حياتها كما يراها في شعره تلك الحياة (طلمريضة) الرافية خباب امله وعاد الى الحياة واخذ يلوم علوة بانها خانت عهد واهي عهد وبيهجوها وبيهجو زوجها واني اربأ بشعر البحتري الاذ النقي عن هذا الهجاء القدر واشكر لجامع الديوان في طبعة بيروت الذي حذف مثل هذا

الهباء وابقى لنا هذا اللون التاسع من غزله في علوة .

بودي لو يهوى العزول ويمشق
ارى خلقا حي لعلوة دائما
وزور اتاني طارقا فحسبته
اقدم فيه الظن طورا مكذبا
اخاف وارجو بطل ظني وصدقه
وقد ضمنا وشك التلاقي ولفنا
فلم ار الا مخبرا عن صبابة
فاحسن بنا والدمع بالدمع واشج
ومن قبل قبل التشاكي وبعده
فلو فهم الناس التلاقي وحسنه

ويمحس ان تراجع الميمية في مديح المتوكل المشروحة ففيها
وصف طيف علوة على ائمه ويظهر انه بعد ان وقف منها ذلك الموقف
حجرها واستحيا ان يذكر طيفها فضلا عن ذكرها فاننا لم نجد ذكرها
في قصائد الوزير اسماعيل بن بلبل ومن مدحهم في ايامه هو لم يزل
يذكر الاطيف ولكن اسم علوة غاب الى الابد يذكر اسم سمدي وما
سمدي وعلوة الا اسماء مستعارة لهذا الخيال الذي اخترعه البحتري في
هذا الشعر الغزل الرقيق والمهم ان غزل البحتري قد شاخ مع جسمه
انظر الى طيف سمدي وقابله بطيف علوة .

طيف تاوب من سمدي فحياني اهواه وهو بعيد النوم يهواني
فيا لها زورة يشفي المايل بها لو انما جابت يقضى ليقظان

مهزوزة ان مشمت لم تلف هزتها في الخيزران ولم توجد مع البان
يدني الكرى شخصها مني ويبعدني هجر فيعد مني شخصها اللاني
وكل هذا الشعر على هذا النمط بعيد عن تلك الروح الوثابة
ودونك الجفاف في سوى هذه القافية -

اطلب النوم كي يعود غراره بخيال يحلو لدى اغتراره
كم تلاق ارتكبه عن قريب صلة الطيف طارقا وازدياره
وهي في حلبة الشباب تضاهي جدة الروض مشرقانواره
صنع خد يكاد يدعى احمرارا ورده في العيون او جلناره
وقور من طرف احوى اذا صرفه اعنت القلوب احوراره
انه للعدى ومالي منه م اليوم الاستيحاشه ونفاره
جاره الله حيث كان وان لم يجد نقما مقسالتى الله جاره
هذا غزل نفس قد شاخت وذهبت الايام بجدتها .

يقول هذا القول وقد قارب الثمانين وهيات ان تواتي النفس وتخدم
الحياة المطالب اللاذة .

قلن ابن الشباب في عقب فوت وهو قول اعيا على جوابه
وموت الفتى وان كان حيا حين يستكمل الفساد شبابه
وكم كنا نود ان تبقى حورة علوة كاملة منزهة في ذهن ذلك
الشيخ الفاني ولكن افسدتها حياة القصور ودور الخلافة والوزارات
وهذه اثروة الطائلة مسكينة علوة مسكينة ماتت في خاطر البحتري
اخر ايامه وخلدت في حياته وشعره الحقيقي وما كان اغنانا عن هذه
التنقيب ووصولنا الى هذه النتيجة المؤلمة لكنها حقيقة واما اكثر ايام
الحقائق

آراء متفرقة

قررنا ان الشاعر لا يستقر رأيه ولا يمكن ان يؤخذ بما قال في ساعة تدعو اليها الشاعرية وعبقرية الشاعر ترجع الى هذه الومضات والى تقريرها لذلك لم يكن لنا بد من تتبع هذه الآراء وانما نحترس من ان نقول ان البحتري كان يرى هذا الرأي او يدفع عنه او ينسب ذلك الى حكمة او فلسفة .

اول هذه الآراء هو نظرتة في الحياة فالتتبع في اول امره براه يحب الحياة ويعب من مناهلها ونتيجة هذا العب ان يعرف كيف يستمتع بالذائد وقديما راينا الشعراء والحكام يحبون الحياة فيحرصون عليها حتى يتركوها لورثتهم ثم يعرفون ان ذلك لا يعني حب الحياة ولكنهم لا يتمكنون من ان يسيطروا على ملسكاتهم الخلقية ، من هذه الناحية مروان بن ابي حفصة من الشعراء والكندي من الحكماء وسهل بن هارون من الكتاب ومنهم من كان مستهترا لا يهتمه شيء ولا يعبا بنظام ولا قانون يلبي طلب الحياة وينقم منها كما كان بشار ومطيع بن اياس او يتلذذ بنعمها كما كان يفعل ابونواس ومسلم ويميل اليها ولكن بقدر كما كان يفعل الجاحظ والنظام .

فمن اي هؤلاء البحتري ؟ . البحتري من كل هؤلاء يحرص على الدنيا حتى يستطيع ان يصرفها في اموره ومن هنا نراه يطلب المال والمديح عنده وسيلة الى هذه الدنيا حتى اذاته لا يعرف كيف يحرص عليها ذلك كان شأنه عندما قدم العراق وعندما رأى الخليفة المتوكل

والوزراء وجلساء الخليفة فكان ينفق كل ما وصل اليه يده ينفقه في هذه الدنيا الراهبة التي تتسع لاموال الخلفاء والمظاهء ، هذه الخمر وما يتبعها من صنوف المذائذ لا تبقى على مال واحيانا على كرامة وفي هذه الاونة وبين هذا التصويب والتصعيد رأينا البحتري يطلب الخمر وهو فن شعري سنه ابو النواس واضرابه او يطالب غلاما وهذا من لزوميات الخمر فيقولون هذا استجداء لا يلبق بكرامة وهو يجري بسنن القدماء وان الملوك لا يستجيبون من مسألتهم وقد تكون هذه المسألة براعة طلب تسير بخبرها الركبان وتزيد شمر البحتري رونقا كقوله
اسلم ابا العباس وأبق م ولا ازال الله ظلك
وكن الذي تبقى لنا ابدا ونجمن نموت قبلك
لي حاجة ارجو لها احسانك الاوفى وفضلك
والمجد مشترك عليك قضاءها والشرط املاك
فلئن كفيت مهمها فامثلها اعدت مثلك
قيل ان هذه الايات قالها لاحمد بن ثوابة المكنى بابي العباس وان احمد هذا وقع في رقته [مقضية والله الذي لا اله الا هو ولو اتلفت المال وازهبت الحال فقل — رعاك الله — ماشئت متبسطا وثق بما انا عليه مغتبطا ان شاء الله]

وله مثل هذه كثير اي يكون في مثل هذه الطلبات منفرج عن نفس الشاعر واظهار النباهة والتفوق ولا نرى انها خسة فيه كما نرى في ايامنا هذه من يرسل قطعة نفيسة يتصملك بها فتجري الدموع من محاجر تطيب لها نفس الكاتب واريد ان اقول ان كثيرا من هذه المواقف عند شاعرنا كانت تمثيلا لاحقيقة .

رأيه في المرأة

إذا قلنا المرأة فلا تريد لها عروس شعره وحلمية فنه لا تخلو منها
قصيدة يبرزها كما يشاء الفن فهي المرأة العربية التي وصفها امرؤ القيس
وانما نريد مقام المرأة في الاجتماع . لم يكن البحثري ممن يقررون نظم
الحياة ولا ممن يهتمون له — انه الاوضاع فهو العربي المسلم يسير بسيرة
الاقدمين وهو يراها متممة للرجل والاسرة ابنة واختا وزوجة واما .
واتفق ان ماتت ابنة لابي نهشل محمد بن حميد الطوسي وقام للعزاء
فتقدم منه البحثري يعزي على طريقة الاقدمين .

الاسى واجب على الحر اما نية حرة واما رياء
اتبكي من لا ينازل بالسيف م مشيحا ولا يهز اللواء
والفقى من رأى القبور لما طاف ف به من بناته اكفاء
قد ولدن الاعداء قدما وورثن م الثلاث الاقاصي البعداء
ثم جعل يمثل من التاريخ القديم على شر المرأة حتى انتهى الى آدم
واستزل الشيطان آدم في الجنة لما اغرى به حواء
ويختتمها :

وامعري ما المعجز عندي الا ان تبيت الرجال تبكي النساء
ودونك قطعة اخرى ذات خمسة ابيات يعزي موسى بن عبد
الملك عن ابنة له توفيت .

ابا حسن ان حسن العزاء م عند المصيبات والنائبات
يضاعف فيها الاله الثواب م للاصابرين وللصابرات

ومنزلة الصبر عند البلاء كمنزلة الشكر عند الهبات
ومن نعم الله لا شك فيه حياة البنين وموت البنات
لقول النبي عليه السلام موت البنات من المكرمات

هذا يمثل الراي القديم في الشرق ولا يخفى ان مثل هذه الآراء
جاءت في ادب الغرب ايضا وهي تمثل واقعة حال . وعن السلف السالحي
ان النساء لا يعزى بهن فاذا جاء في شعر البيحري مثل هذا فيكون
قد رسم لنا الصورة الواقعية لذلك العصر .

اما اذا عاد الى نفسه الشاعرة فترى في شعره غير هذا فانه لما ماتت
جاريته في دمشق رثاها رثاء حقيقيا دل على عاطفة تعرف كيف
تصرف الامور

خليبي اني ذاكر عهد خلة توات ولم اذمم حميد ودادها
فوا عجبيا ما كان انصر عهدا لدي وادنى قريها من بعادها
وكنت اري ان الردى قبل بينها وان افتقاد العيش دون افتقادها
بنفسي من عادت من اجل فقهه بلادي ولولا فقهه لم اعادها

يقول هذا لان تلك المرأة قد ماتت في دمشق وهو بصحبة المتوكل
وعنى بيلاذه الشام وعلى كل حال لا يؤخذ للبيحري الشاعر رأى ولا
سبها وهو لا يرى في امرأة عصره ما يسجل مآثرة حتى انه لما حجت أم
المتوكل وقد انجس المطر انفتت على عين مشاش بمكة فذكر تلك
الفضيلة للمتوكل نفسه ثم عاد فكفر عن ذلك وذكرها صراحة في
مديح المعتز

ابوه البحر سباح لنا نداءه
 سقت هلكتي الحجاج واطعمتهم
 وردت من نفوسهم اليهم
 فقد رجعت وفود الارض تني
 لئن شكر الانام فقد اغيثوا
 اذا كفل الامام لهم بنعمي
 ففاض وامسه ماء الغنم
 واحيت ساكني البلد الحرام
 وقد اشفوا على تلف الحمام
 بذاك الطول والمنن الجسام
 هناك بفضل سيده الانام
 نوات مثلها ام الامام

